بلاد سوريَّة في القرن الثاني عشر

وفقًا لرواية ابن جبير

١

تعريف رحلة ابن جبير

في السنة الهجريَّة ٥٧٨ الموافقة لسنة الميلاد ١١٨٤ اعني سنتين قبل فتح السلطان صلاح الدين للقدس الشريف حضر من الاندلس رحَّالة مسلم ليزور بلاد الشام. وكان السائح الموما اليهِ يُدعى بابي الحسين محمَّد بن احمد بن جبير الكنانيّ (١. كان تقلَّد في بلاد المغرب والاندلس المناصب الشريفة وتقلَّب في الاعمال المنيفة. فلمَّا عاد الى وطنهِ دوَّن اخبار سفرهِ الى الشرق (٢. وهذه خلاصة رحلتهِ: ركب ابن جبير البحر في سبتة مقلعًا الى الاسكندريَّة على مركب للجنويين فمرَّ على جزيرة سردانية فصقلّية فجزيرة اقريطش وبلغ الاسكندريَّة بعد ٣٠ يومًا ثمَّ طاف الصعيد ومال الى عيذاب فقطع بحر القلزم الى جدَّة وسار منها الى مكَّة فاتمَّ فريضة الحجّ ثم زار المدينة ورحل منها الى العراق برًّا فوصل الى الكوفة ومنها الى بغداد. ثم كرَّ راجعًا الى المغرب فمرَّ بالموصل وبلاد الجزيرة الى ان بلغ منبج فدخل سوريَّة وزار اولًا حلب ثم وادي العاصي ثم دمشق وصور وعكَّة ومنها البحر الى الاندلس على احدى المراكب الجنويَّة

---

١) من احبَّ مطالعة ترجمة ابن جبير بالتفصيل عليهِ بمقدَّمة العلَّامة رَيْت (W. Wright) الذي تولَّى طبع اسفارهِ ومقدَّمة المستشرق الفاضل دي غوي الذي جدَّد آخرًا طبع هذه الرحلة والى اعداد صفحاتها نشير. وليراجع خصوصًا ما كتبهُ عنهُ العلَّامة سكياپارلّي (C. Schiaparelli) الذي نقل رحلتهُ الى الايطالية وسنعود الى ذكر ترجمتهِ. واطلب ايضًا ما كتبهُ المقري عنهُ في نفح الطيب

٢) ثم عاد ابن جبير الى انحاء الشرق فزارها ثلاثًا لكنَّهُ لم يروِ في كتابهِ غير اخبار رحلتهِ الاولى

ولا نتعقّب آثار المؤلف في كل رحلتهِ بل نكتفي بما كتبهُ عن سوريَّة التي عليها مدار كلامنا . ووصفهُ لها يشغل في الكتاب نحو ٧٠ صفحة ونحن نقصر درسنا على هذا القسم فقط فنبيّن خواصَّهُ وفرائدهُ . وقد صرفنا اليهِ نظرنا بعد المقدسيّ لانَّ بين الكاتبين بوناً عظيماً في كلامهما عن سوريَّة لا يكاد يجمعهما غير وحدة الموضوع . وكان الاول كما سبق القول وطنياً وكان ابن جبير اجنبياً غريباً . كتب المقدسيّ بصفة جغرافيّ مدقق امَّا ابن جبير فانهُ يكتب كتابة الرحَّالة الذين يدوّن كلّ يوم ملحوظاتهِ في محفظتهِ كما أثرت فيهِ وعملت في قلبهِ . وقد اختلف ايضاً الكاتبان في اسلوبهما وغايتهما ولذلك تجد تعريفهما لبلاد الشام متبايناً وبينهما نحو القرنين . فانَّ المقدسيّ يقصد قبل كلّ من كتابتهِ الافادة والتعليم . امَّا ابن جبير فانهُ يتوخَّى من كتابتهِ بهجة القرَّاء وترويح البابهم . وكذلك تجد الاوَّل كثير التدقيق محبًّا للضبط والايجاز . على خلاف الثاني الذي يطلق العنان الى قلمهِ فلا يحصر نفسهُ في قالب او يقضي عليها بخطَّة معلومة فتراه يمزج تفاصيل رحلتهِ بما يعاينهُ ويسمعهُ وربَّما ادمج وصفهُ بالاخبار والماجريَات التي جرت ابَّان رحلتهِ او نقلها عن الرواة . كما فعل بذكر صلاح الدين (ص ٣٠٠—٣٠١) . فانهُ يروي عنهُ اموراً بلغتهُ عن ذلك الملك العظيم الذي كان يحاصر حينئذٍ حصن الاكراد

وكلا الكاتبين يدَّعي مع ذلك انهُ لا يروي غير ما شهدهُ بالعيان . على انَّ المقدسيّ يشمل في وصفهِ كل انحاء سوريَّة بينما يقتصر ابن جبير على ذكر الامكنة التي احتلَّها في سفرتهِ وان كانت تلك الامكنة ليست قليلةً لأنَّ الرحَّالة تفقَّد معظم مدن سوريَّة الشهيرة في زمانهِ اللهمَّ الَّا جهات فلسطين وربَّما زاد في اوصافهِ لمدن الشام اموراً وفوائد جغرافيَّة فاتت المقدسيّ او ضرب عنها صفحاً

ومما نبَّهنا اليهِ الخواطر في كتاب المقدسيّ فانتقدناهُ عليهِ استعمالهُ احياناً للسجع في اوصافهِ . لكنَّ المقدسيّ في ذلك لا يتجاوز حدود كتَبة زمانهِ ولا يبالغ كثيراً . اما ابن جبير فانَّ السجع يغلب على انشائهِ فيواصلهُ في صفحات متتاليـة . ومن المعلوم انَّ السجع يؤدي بصاحبهِ الى حشو الكلام والى استعمال الغريب والى التصنُّع فيبتعد الكاتب عن طرائق الكتابة الساذجة المألوفة ويبدلها بالمعاني المستغلقة والتعابير المستبهمة وكان السجع قليلاً في عهد الجاهليَّة وفي قرون الاسلام الاولى ثم تكاثر بانحطاط فنون الكتابة . وما نقولهُ بالاجمال يصحُّ في سجع ابن جبير ألا ترى مثلاً كيف وصف مدينة

حلب بما يشنّف اذن السامع دون ان يجديهُ نفعاً كبيراً في معرفتها قال (ص ٢٥٠):

« بلدة قدرها خطير . وذكرها في كل زمان يطير . خطَّاجها من ملوك كثير . ومحلُّها من النفوس اثير . فكم هاجت من كفاح . وسلَّت عليها من بيض الصفاح . لها قلعة شهيرة الامتناع . باثنة الارتفاع . ممدومة الشبه والنظير في القلاع . تنزَّهت حصانةً ان تُرام او تستطاع . قاعدة كبيرة . ومائدة من الارض مستديرة . . . »

الى آخر ما هناك من الكلام المسجَّع (اطلب نخب الملح ٣ : ٩٠) الذي ليس تحتهُ كبير امر . ومثلهُ في وصف بساتين دمشق (ص ٢٦٠):

« ظلّ ظليل . وماء سلسبيل . تنساب مذانبهُ انسياب الاراقم بكلّ سبيل . ورياضٌ يحيي النفس نسيمها العليل . تتبرَّج لناظرها بمجتلًى صقيل . وتناديهم هلمُّوا الى معرَّس الحسن ومَقيل . قد سُمت ارضُها كثرة الماء . حتى اشتاقت الى الظماء . فتكاد تناديك الصمّ الصلاب . اركض برجلك هذا مغتسَل باردٌ وشراب . قد احدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر . . . »

وممَّا يستحبُّهُ القارئ في مطالعة رحلة ابن جبير كما في اخبار الاسفار عموماً انَّ كاتبها يشير الى خواطر نفسهِ ويترجم عن احوالهِ الشخصيَّة وشواعرهِ لدى معاينتهِ الآثار والبلاد فمثال ذلك انهُ اذا رأى بلداً في الشام تذكَّر نظيرهُ في الاندلس وقاس ذاك بهذا لما يجد فيهما من الشبه . كما فعل بحمص التي ذكَّرتهُ اشبيلية . قال (٢٥٨):

« وتجد في هذه البلدة عند إطلالك عليها من بُعد في بسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها بعض شبه بمدينة اشبيلية من بلاد الاندلس يقع للحين في نفسك خيالهُ وبهذا الاسم سُمّيت في القديم وهي العلَّة التي اوجبت نزول الاعراب اهل حمص فيها حسبما يُذكر وهذا التشبيه وان لم يكن بذاتهِ فانهُ لمحةٌ من احدى جهاتهِ »

ولهُ قول كهذا في قنّسرين وهو يعارضها بجيَّان الاندلس (ص ٢٥٤):

« وتشبهها من البلاد الاندلسيَّة جيَّان ولذلك يُذكر انَّ اهل قنّسرين عند استفتاح الاندلس نزلوا جيَّان تأنُّساً بشبه الوطن وتعلُّلًا بهِ مثل ما فُعل في اكثر بلادها حسب ما هو معروف (١ »

---

١) اطلب معجم البلدان لياقوت (٢ : ١٠٥-١٠٦) ولهُ ملاحظة كهذه

هذا وانَّ في انشاء ابن جبير تعابير والفاظ تفرَّد بها تُشعر بأَصلهِ المغربيّ . وفي النصوص التي نثبتها عنهُ دليل على ذلك

ومهما كان الامر من محاسن ابن جبير ونقائصهِ فانَّهُ لمقرَّر انَّ هذا الكاتب احد ارباب القلم يعتبرهُ المستشرقون اعتبارًا عظيماً . قال العلَّامة رورخت في كتابهِ المعنون مكتبة جغرافيي فلسطين (١ : « انَّ رحلة ابن جبير غاية في الخطر لمعرفة بلاد الشام » . وقد ادرجت جمعيَّة الكتابات والفنون في باريس قسماً كبيرًا من هذه الرحلة في مجموع مؤرخي الحروب الصليبيَّة الشرقيين (٢ لِما أُودع الكتاب من الفوائد التاريخيَّة عن الامور الجارية في زمانهِ . وقال الاستاذ سكياپارلي في مقدَّمة ترجمة ابن جُبير انهُ « اذا قوبل بينهُ وبين غيرهِ من رحَّالي العرب كالمقدسي وابن بطوطة وغيرهما لا يوجد ابن جبير دون احد منهم في شيء من حيث الضبط والدقَّة وحسن الاسلوب وخطر الامور المدوَّنة » هذا ما قالهُ سكياپارلي وحكمهُ صوابٌ وان كنَّا نرى انَّ المقدسيّ اعلى طبقةً من ابن جبير . لكنَّنا نقدّر ايضًا ابن جبير قدرهُ كما اقرَّ بفضلهِ ابن بطوطة وغيرهُ مِمَّن استشهدوا بهِ ونقلوا عنهُ

ومِمَّا افادنا ابن جبير تعريفهُ لاحوال اهل الشام ووصفهُ لعاداتهم كما لحظها في تجوُّلهِ بينهم فدوَّن ملحوظاتهِ فيها وبما انهُ كان غريباً تجدهُ يتسع في بيان امور لا ينصرف اليهِ نظر اهلها ولولاهُ لجهلناها تماماً . فمن ذلك عدَّة اشياء ذكرها في دمشق قد اخفى عليها الزمان منذ زمن طويل كالبنكام الذي رآهُ هناك (ص ٢٦٩—٢٧٠) وكقبَّة النسر التي وصف خصائصها (ص ٢٩٣) واستغرب حجارتها فقال :

« وفي الجدار حجارة كل واحد منها يزن قناطير مقنطرة ولا تنقلها الفيَلَة فضلًا عن غيرها فالعجب كلّ العجب من تطليعها الى ذلك الموضع المفرط السموّ وكيف تمكَّنت القدرة البشريَّة فسبحان من ألهم عبادهُ الى هذه الصنائع العجيبة ومعنهم على التأنّي لما ليس موجودًا في طبائعهم البشرية ومظهر آياتهِ على يد من يشاء »

---

١) الطلب Rœhricht: *Bibliotheca Geogr. Palæstinæ*, p. 42

٢) الطلب Historiens des Croisades, III, 442-456

فليت شعري ما عساهُ كان قال ابن جبير لو رأى حجـارة بعلبك او عاين هيكلها العجيب الَّا انَّ مسيرهُ لم يؤدِّ بهِ الى تلك المدينة (١

٢

سوريَّة وابن جُبير

رأيتَ في الفصل السابق الطريقة التي توخَّاها ابن جبير في تسطير رحلتهِ وما ضمَّنها من الفوائد . فبقي علينـا ان نرافقهُ في سياحتهِ في بلاد الشام فنلتقط بصحبتهِ بعض المعلومات عن سوريَّة في مختتم القرن الثاني عشر ولا غرو فانَّ دليلنا فكهُ النفس متوقد الذهن فيبهج رفقتهُ ويفيدهم معًا

بعد ان اجتاز ابن جبير بلاد الجزيرة قطع الفرات فكان اوَّل ما لقيهُ في وجههِ من بلاد الشام منبج . فاحسَّ السائح بجواد قلمهِ يُركض فاسترسل في وصفها بالسجع كمألوف عادتهِ (ص ٢٤٨) ولم يذكر من خواصها الَّا النزر القليـل ممَّا لا يُشفى بهِ العليل ولا يُروى الغليل . ثم سار من منبج الى حلب فوصفها وصفًا طويلًا روينا شيئاً من الفاظهِ المبهرجة . وألحق هذا الوصف باشتقاق اسم حلب فقال (ص ٢٥١) :

« كانت قديمًا في الزمان الاوَّل ربوة يأوي اليها ابراهيم الخليل بغُنَيمات لهُ فيحلبها هنالك ويتصدَّق بلبنها فلذلك سُمِّيت حلب والله اعلم »

وهـذا الاشتقاق في الغرابة بمكان ذكرهُ ياقوت في معجم البلدان (٢ : ٣٠٤) مرتابًا في صحَّتهِ وقد زاد عليهِ ابن بطوطة ما هو اغرب فجعـل بدلًا من الغنم بقرةً شهباء قال : فكان اذا حلبها ابراهيم قيل « حلبَ ابراهيمُ الشهباء » . وليس في كل هذه الاشتقاقات كما ترى ذرَّةٌ من الصحَّة وانَّما هي مشابهات لفظيَّة لا طائل تحتها . ومثلها اشارة ابن جبير الى اشتقاق اسم حماة من حَمَى يحمي (ص ٢٥٥)

---

١) ذكر ابن جبير بعلبك (ص ٢٥٨) مرَّة واحدة دون وصفهـا وألحق بذكرها قولهُ « اعادها الله » كانهُ ظنَّ انها في ايدي العدوّ . وهو وهمٌ ظاهر لانّ بعلبك لم تحصل قطّ في حوزة الفرنج